المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثامن والعشرين

١ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٣ — الموافق ٣ محرم سنة ١٣٢١

حروف الطبع العربية

في الكون ناموسان او اسلوبان يجري الارتقاء على حسبهما الاول التغيُّر الجزئي التدريجي من البسيط الى المركَّب ومن الساذج الى المتقن ومن الصعب الى السهل. والثاني التغيُّر الكلي الفجائي الذي يقلب الاشياء قلباً ويحوّلها من حال الى حال. ولكلٍّ منهما شأن كبير في ارتقاء الموجودات جماداً كانت او نباتاً او حيواناً ومادية كانت او ادبيَّة. وعليهما جرى الناس في فلاحتهم وصناعتهم وتجارتهم وامارتهم وسائر اعمالهم

والغالب ان الارتقاء الجزئي التدريجي يسير سيرهُ زماناً طويلاً ثم يأتي الارتقاء الكلي الفجائي فيقلب الاشياء قلباً ويبدل حالها بحال اخرى لم تكن في الحسبان. مثال ذلك ان المركبات التي تجرها الخيل والبغال لنقل الناس والبضائع جرت في سبيل الارتقاء التدريجي حتى كادت تبلغ اقصاهُ وحينئذٍ ظهرت الآلات البخارية والسكك الحديدية فأبدلت اساليب النقل القديمة باساليب جديدة كما هو معلوم. والسفن الشراعية تدرَّجت في سبُل الارتقاء والاتقان حتى كادت تبلغ حدها وحينئذٍ ظهرت السفن البخارية فانقلبت بها الحال فجأةً وصارت اكثر السفن بخارية الكبيرة منها والصغيرة. واساليب نقل الاخبار تنوَّعت وارتقت حتى كُشف التلغراف الكهربائي ففاقها كلها وقام مقام اكثرها. والآن قد بلغ حدًّا يفوق التصديق من السرعة والدقة ولكن ظهر التلغراف الذي لا سلك لهُ ولا يبعد ان يتغلَّب عليهِ ويقوم مقامهُ. وقس على ذلك امثلة كثيرة من هذا القبيل

ومعلوم ان اهمال الشيء المتقن وابدالهُ بغيرهِ اصعب من اهمال الشيء غير المتقن وابدالهِ

بغيره . اي ان الاشياء التي تكون غير متقنة يسهل تركها وابدالها بغيرها واما الاشياء التي يفلح الصناع في اتقانها يكثر استعمالها فيصعب تركها على مستعمليها

وقد جرت الطباعة مجرى غيرها من الاعمال . وكان من نصيب العربية ان صُنعت لها حروف الطباعة قبلما صُنعت لاكثر اللغات لا لان اهلها اهتموا بذلك بل لان اهالي اوربا كانوا يهتمون بكتب العرب وعلوم العرب فلم يكادوا يستنبطون الطباعة ويشيعونها في بلادهم حتى صنعوا حروفاً للغة العربية وطبعوا بعض كتبها العلمية الكبيرة . ونحن نكتب هذه السطور الآن وامامنا بعض هذه الكتب منها قانون ابن سينا طُبع في مدينة رومية سنة ١٥٩٣ في دار الطباعة الطبية وطبعهُ واضح جدًّا ولو لم يُعدَّ جميلاً وحروفهُ متصلة بعضها ببعض احسن اتصال وهي على استواء واحد في سبكها فلا يظهر بعضها غائرًا في الورق وبعضها غير غائر فيهِ كما ترى في الكتب المطبوعة بمطبعة بولاق . والحروف المستعملة في طبعهِ على ثلاثة اقدار كبير ومتوسط وصغير . والكتاب ضخم فيهِ نحو الف صفحة بقطع كبير في الصفحة منها ٥٤ سطرًا ونسق طبعهِ واحد من اولهِ الى آخرهِ . وامامنا ايضاً كتاب تحرير الاصول الهندسية لاقليدس الذي حرَّرهُ نصير الدين الطوسي وقد طبع في رومية سنة ١٥٩٤ وحروفهُ مثل حروف كتاب القانون تمامًا وقد صوَّرنا قطعةً منهُ في الشكل الاول المقابل للدلالة عليهِ

وكان الطبع العربي معروفًا في اوربا قبل ذلك فطُبع كتاب المزامير في مدينة جنوى سنة ١٥١٦ وطبع الانجيل العربي في رومية سنة ١٥٩١ وانتشرت الطباعة العربية في كثير من المدن الاوربية فطبع الانجيل العربي في هولندا سنة ١٦١٦ والتوراة العربية في باريس سنة ١٦٤٥ وفي لندن سنة ١٦٥٧ ووصلت المطبعة وحروف الطباعة العربية الى جبل لبنان فطبع المزامير في مطبعة الشوير سنة ١٦١٠

ثم اهتمَّ الاوربيين بتجميل الحروف العربية فبلغت اولاً ما تراهُ في اشكال مطبعة مالطة التي انشأها المرسلون الاميركيون منذ نحو سبعين سنة كما ترى في الشكل الثاني وهو قطعة منقولة عن تاريخ الكنيسة المطبوع في مدينة فالته سنة ١٨٤١ وبلغت اعلى درجات الاتقان الصناعي في حروف مطبعة باريس كما ترى في الشكل الثالث فان كل حرف منها مرسوم رسمًا جميلاً من حيث الجزء الغليظ منهُ والدقيق والطبع بهِ على غاية الوضوح يبين بهِ الفراغ في رأس الفاء والميم وهو في الاصل على ورق صقيل يصعب الطبع عليهِ عادةً ومع ذلك لا ترى حرفًا نائتًا ولا حرفًا غير واضح ولا نظن انهُ استنبَّ لاحدٍ حتى الآن ان صنع حروفًا عربيَّة ادق صناعة من حروف مطبعة باريس هذه ولو كان بعضها غير جميل

الاَّ ان الذين صنعوا حروف الطباعة العربية حاولوا تقليد الخط تماماً وكان الخط قد ارتقى كثيراً وعُلِّقت حروفهُ بعضها ببعض فلم يخطر لهم انهُ يمكن فصلها وتبقى مقروءة ولو فعلوا وصنعوا حروفاً منفصلة خالية من الزوائد لكانت الفائدة اتم

وقد رأى اصحاب المطابع العربيَّة من قديم الزمان انهُ يسهل اهمال بعض الاشكال التي تستعمل في الخط ويبقى الطبع العربي واضحاً فاهملوا كثيراً منها رويداً رويداً حتى صار الطبع على ما تراهُ في الحروف التي تطبع بها المقتطف الآن . الاَّ ان مطبعة بولاق الاميرية بقيت محتفظة باشكالها الاولى لا تحيد عنها حتى دعت الحال ان انتدبت الحكومة المصرية لجنة تنظر في امرها وفي كيفية اصلاحها برئاسة صاحب السعادة ابرهيم باشا نجيب وكيل نظارة الداخلية وعضوية حضرات شيلو بك مدير المطبعة الاهلية والجريدتين الرسميتين والشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية في نظارة المعارف العمومية وامين سامي بك ناظر المدرسة الابتدائية ومدرسة المعلمين الناصرية واحمد زكي بك سكرتير ثاني مجلس النظار . وليس منهم مَن اشتغل بالطبع العربي او بعمل الحروف العربيَّة ولكنهم بحثوا بحثاً دقيقاً فاجلى بحثهم عن فائدة كبيرة كما سيجيء وقد نشروا نتيجة بحثهم في رسالة وجيزة قال رئيسهم في مقدمتها ما نصهُ

"كان استنباط الطباعة العربية بمدينة البندقية فيما بين سنتي ١٥١٠ و١٥١٤ ميلاديَّة . فقد ثبت ان اهل هذه الجمهورية هم اول من حفر الحروف اللازمة لطبع الكتب العربية ثم استخدموها في طبع كتب الادعية والصلوات . ولا تزال نسخ قليلة جدًّا من هذه الكتب محفوظة الى الآن باشهر المكاتب العمومية بديار اوروبا

"في ذلك العصر كثرت العلائق والمخالطات بين اوروبا واقطار المشرق فمست الحاجة الى تعميم المعارف الشرقية بين الافرنج واضطرتهم الاحوال الى استخدام المطبعة لنشر آثار العرب في العلوم والآداب . فنهضت رومية العظمى واقتنت الخطة التي سلكتها البندقية في هذا الموضوع . وفي تلك المدينة الجليلة التي كانت عاصمة للحضارة الغربية في قديم الزمان تمّ حفر الحروف العربية على قاعدة النسخ في سنة ١٥٩٦ وهي المعروفة الى اليوم بحروف عائلة ميدسيس

"وقد استعارت باريس من رومية هذه الحروف النسخية ولا تزال بأكملها محفوظة فيها وفي مدرسة نشر الديانة برومية الى الآن . وفي سنة ١٥٩١ اهتم الموسيو سفارى ده بريف سفير فرنسا لدى الباب العالي بحفر جملة أقلام (آباء) في الاستانة العلية على قاعدة النسخ وهي محفوظة ايضاً في باريس لصب الحروف واستخدامها في مطبوعاتها العربية

"ثم ازداد اشتغال العلماء المعروفين بالمستشرقين باللغات والعلوم الشرقية فاستعارت المدارس الجامعة في انجلترة والمانيا حروف الطباعة العربية بعد تحسينها واتقانها في رومية

"وكان تقدم الطباعة العربية بطيئاً في بلاد اوروبا لأن اشغالها كانت بالطبع قاصرة على اعمال معينة قليلة . فلذلك لم يكن لها نصيب كبير من حركة الارتقاء التي نالتها الطباعة الافرنجية إذ ما برحت من عهد ظهورها سائرة الى يومنا هذا نحو الارتقاء والكمال

"ومع ذلك فقد بقيت الطباعة مجهولة في بلاد المشرق ما عدا الاستانة العلية وبعض الاديرة ببلاد الشام حتى اذا اغار بونابرت على مصر اضطرّ في اول الامر للاستعانة بمطابع الحجر على نشر منشوراته واوامره باللغة العربية . ثم انشأ مطابع الحروف فيما بعد بالقاهرة والجيزة والاسكندرية . ولكن ادوات هذه المطابع تلاشت مع الاحتلال الفرنساوي"

واستطرد حضرة الرئيس بعد هذا المختصر التاريخي الى ذكر مطبعة بولاق التي انشأها محمد علي باشا سنة ١٨٢٠ فقال

"قامت هذه المطبعة بأكبر خدمة للغة العربيّة والآداب الشرقية فانها اصبحت في مصر وفي بلاد المشرق كلهِ واسطة لتعميم ثمرات التقدم الحديث ونشر لواء الحضارة العصرية . اذ تيسر لنا بسببها ان نشترك في الحركة العظيمة التي ارتقت بها الافكار والمعارف في ديار اوروبا . وما زال المرحوم محمد علي الخالد الآثار في هذه الديار يبالغ في العناية بشأن هذه المطبعة ويواليها باهتمامهِ الفائق حتى انها منذ انشائها ضارعت اعظم المطابع في عصرها بل فاقت عليها كلها بمجال مطبوعاتها وكثرة اعمالها . ولكنها بعد هذه النشأة المجيدة وبعد توالي نجاحها الظاهر الباهر وقفت في طريقها بل انحطت عن المكانة السامية التي بلغتها في ايام محمد علي

"بقيت مطبعة بولاق منذ تأسيسها الى سنة ١٨٨٠ قاصرة على الطباعة الشرقيّة فصارت في تلك السنة مختلطة بانضمام المطبوعات الافرنجية الى اعمالها وفي هذه الايام الاخيرة تمّ تجديد بنيانها على نظام جميل واستوفت كافة المعدّات الجديدة البالغة اعلى درجة من الاتقان والكمال . ولكن حروفها العربية التي اخنى عليها الزمان بقيت على حالتها العتيقة مع ما فيها من التعقيد والسقامة

"لا مُشاحّة في ان الطريقة التي روعيت في ابتكار الطباعة العربية تدعو الى صعوبات كثيرة منشأها تعدد اشكال كل حرف من حروف الهجاء بحسب موقعهِ من الكلمة وضرورة تراكب بعض الحروف وتداخلها في بعضها

"وهذه الصعوبات تستوجب حتماً ان يكون عمل المطابع جسيماً لا تعادلهُ النتيجة التي

يؤدى اليها . وفي ذلك مالا يخفى من مخالفة قواعد الاقتصاد التي يجب التعويل عليها في ايامنا هذه في كل مشروع صناعي . فلهذه الاعتبارات اضطرّت اكبر المطابع في اوروبا للبحث عن الدواء الوحيد المعقول الذي ينبغي استعمالهُ في مثل هذه الحالة الّا وهو تسهيل الطباعة العربية . فما زال اصحابها يواصلون السعي وراء هذه الغاية حتى لقد توصل بعضهم الى تخفيض عدد الحروف لدرجة يغبطون عليها . وكانت السابقة في هذا المضمار الى الآن مطبعة المدرسة الجامعة باكسفورد من بلاد الانكليز فانها تمكنت من اختصار الحروف الى ٢٨٢ فقط . اما مطبعة باريس الاهلية (وعدد حروفها لا يقل عن ٨٠٠ حرف)ومطبعة بولاق (يحروفها التي اوجدها محمد علي وعددها ٩٠٠ حرف) فقد بقيت كلتاهما الى اليوم في معزل عن هذا التيار محرومتين من ثمرات ذاك التقدم والاختصار "

ثم قال ان اللجنة انتدبت اثنين من اعضائها وهما حضرة شيلو بك وحضرة احمد زكي بك ليدرسا في اشهر مطابع اوربا التقدم الذي وصلت اليهِ الى ان قال

" وكانت مأمورية حضرة احمد زكي بك متعلقة على الاخص بالنظر في اختصار صندوق الطباعة وتسهيل جمع الحروف . وقد توصل بعد البحث والتدقيق الى تقليل عدد الحروف اللازمة للطباعة الى ١١٢ بدلاً من ٢٨٢ المستعملة الآن في اكسفورد . ولزيادة الوثوق كلفتهُ اللجنة بعمل تجارب واختبارات يومية في مطبعة بولاق استمرت مدة ثلاثة شهور وكانت نتيجتها ناطقة بافصح بيان على ان الطريقة التي اختارها تكفي من كل وجه لجمع اي عبارة عربية او تركية او فارسية مهما كانت صعوباتها الخطية او المطبعية

" ثم قررت اللجنة ان تعهد عما قليل الى جماعة من مشاهير الخطاطين البارعين بكتابة الحروف تحت مراقبتها بحيث تجيء مطابقة من كل الوجوه لما تستدعيهِ صناعة الخط ومقتضيات الطباعة . وسيقع اختيارها على من يلزم من الخطاطين ليتعاونوا على هذا المشروع ويكملوهُ طبق المرام . واذا دعت الضرورة فان اللجنة لا تتأخر عن الاستعانة بمهارة النابغين من اهل الفنون في الديار الاجنبية لتتميم مقاصدها "

ويتلو ذلك مذكرة تفصيليَّة لحضرة زكي بك اشار فيها بالاقتصار على ١٣٢ حرفاً و ٤٦ علامة بدل الحروف التسع مئة التي تستعمل في مطبعة بولاق . ولو عاني حضرتهُ الطباعة العربية لرأى انها لا تستغني عن بعض الحروف الممدودة مثل ن ك ي حتى تكمل بها السطور الناقصة والاَّ اضطررنا احياناً ان نقسم الكلمة الواحدة قسمين في آخر السطر كما يفعل الاوربيون . ولا بدَّ ايضاً من جمع الشدَّة مع الضمَّة وتنوين الضم ومع الفتحة وتنوين الفتح

ومن سبك الحروف والارقام العددية على درجات مختلفة من الارتفاع حتى يمكن ترتيب الصور الحسابيَّة والكيات الجبرية اذا اريد ابقاء علم الحساب والجبر في العربية . ولا بدَّ من تجويف كل الحروف التي ذكرها من طرفين او من الاطراف الاربعة حتى يمكن وضع الحركات فيها ولا بدَّ ايضاً من انواع مختلفة من الفروق فاذا تمَّ ذلك كلهُ زاد عدد الاشكال مئة او مئتين عما قدَّر لها عدا العلامات المستعملة في التعاليم

وقال " ان اعتماد الطريقة الجديدة في مطبعة بولاق سيعود بفوائد كثيرة اقلها حصول وفر في المصنعيَّة نقول من الآن انهُ لا يقل عن ٢٥ في المئة " . وفسر المصنعيَّة قبيل ذلك بانها " اجرة الجمع والتوضيب والطباعة ونحو ذلك " " وانهُ يترتب عليها تعميم المعارف وترقية الافكار بسبب رخص اثمان الكتب "

والحقيقة ان اجرة ترتيب الحروف وتفريقها لا تزيد على ٢٠ في المئة من نفقات طبع الكتب اذا كان المطبوع منها من الف الى الفي نسخة كما هي الحال الآن واذا زاد المطبوع حتى بلغ خمسة آلاف نسخة الى عشرة آلاف كما ننتظر اذا انتشرت المعارف نقصت نسبة اجرة ترتيب الحروف وتفريقها الى نفقات الطبع كلها وصارت عشرة في المئة او خمسة في المئة فاذا كان الوفر ٢٥ في المئة في ترتيب الحروف وتفريقها (ولا يكون في غيرها) لم يزد هذا الوفر على اثنين في المئة من نفقات طبع الكتب

وحبذا الوقت الذي يصير فيهِ للاثنين في المئة من نفقات طبع الكتب شأن يذكر حتى تعم بهِ المعارف وتترقى الافكار . اما الآن فان اكثر الكتب التي تطبع تأكلها الجرذان ومع ذلك فان الاصلاح الذي اشارت بهِ اللجنة يصلح مطبعة بولاق حتماً ولو لم تنتفع بهِ بعض مطابع العاصمة ولا بلغت بهِ مطابع بيروت

وقد قدَّمنا في فاتحة هذه المقالة ان الارتقاء الجزئي التدريجي لا يغني عن الارتقاء الكلي الفجائي بل ان الاول قد يؤخر الثاني او يحول دونهُ سنَّة طبيعيَّة لا مردَّ لها وهي تفشّي على حروف الطباعة كما تفشّى على غيرها . ولا يخفى ان الغاية التي يرمي اليها طالبو الاصلاح والارتقاء في ابعد من ان يُجعَل حرف الجيم وحرف الميم امام اللام لا تحتها . هي ان نجعل حروف الطباعة منفصلة بعضها عن بعض كحروف الطباعة في اللغات الاوربية او ان نترك الحروف العربية ونقتبس الحروف الاوربية دفعةً واحدة كما ترك اسلافنا الحرف الكوفي وكتبوا بالحرف النسخي . فان كانت الحكومة المصرية تنوي حقيقة ان تُصلح اصلاحاً كبيراً وتنفق عليهِ النفقات التي لا يستطيعها الفرد من افراد الامة فلتفعل ذلك دفعةً واحدة والاَّ فهذا الترقيع لا يغني ولا يشبع

بل يؤخر الاصلاح الحقيقي او يحول دونهُ. وقد فعلت الحكومة المصرية مثل ذلك لما ادخلت سكك الحديد والتلغراف والمحاكم الاهلية الى بلادها لانها لو حاولت اصلاح ما كان عندها حتى يصير مثل ما ادخلتهُ لقضت الاعوام الكثيرة من غير ان تدرك الغرض المقصود

هذا ونكرر الشكر لحضرات اعضاء اللجنة الكرام على الهمة التي بذلوها والمشقة التي كابدوها حتى قرُّوا على ما قرُّوا عليهِ من الاصلاح وحبذا لو كان رأيهم مثل رأينا وهو الاصلاح الكلي دفعةً واحدة فاننا نرجح انهم لو اشاروا على الحكومة بذلك لتبعت مشورتهم وعملت بها فافادت بلادها فائدة لا تقدَّر

السكة الهوائية

قلنا في المقالة السابقة ان الارتقاء الجزئي قد يحول دون الارتقاء الكلي ولم يخطر لنا حين كتابة تلك الكلمات ان نعود الى موضوعها في هذه النبذة فان الترامواي الكهربائي الذي شاع في هذه العاصمة وفي الاسكندريَّة فاتلف شوارعهما وقتل كثيرين من عابري السبيل كان يمكن ان ينشأ ما هو اصلح منهُ كثيرًا لو تأخر انشاؤهُ الى الآن فقد رأينا صورة ترامواي كهربائي ينشأ في المانيا بين مدينة بارمن ومدينة البرفلد خطوطهُ ممدودة في الهواء قائمة على دعائم من الحديد كقوائم القناديل التي تكون في الشوارع والمركبات تجري على هذه الخطوط مدلاَّة منها فلا تزدحم بها الشوارع ولا تدوس احدًا في سيرها ولا يقع منها نار ورماد كما يقع من المركبات البخاريَّة المعلقة في اميركا لانها لا تسير بالبخار بل بالكهربائية. ولا خطر من انقطاع اسلاكها ووقوعها على الناس والبهائم لانها لا تعلَّق بالاسلاك بل بقضبان من الحديد متصلة بعوارض متينة جدًّا . وتعلو المركبات عن ارض الشارع خمسة امتار فقط فيسهل الصعود اليها من المحطات بسلَّم قصيرة ولا تعيق المارَّة في سيرها ولو كانت جمالاً محمَّلة

وطول المركبة من هذه المركبات ١٢ مترًا وعرضها مترانِ وتسع خمسين نفساً وفيها محرِّك كهربائي قوتهُ ٣٦ حصانًا يأخذ الكهربائية من قضبان الحديد المتصلة بهِ. والمسافة من مدينة بارمن الى مدينة البرفلد ثمانية اميال وربع وسير المركبات المعلقة بينهما على غاية السهولة فقد وُضعت فيها آنية مملوءة ماء وهي سائرة فلم ينصبَّ شيء من مائها

فاذا ارادت مدن هذا القطر ان تستعمل الترامواي الكهربائي او غيرهُ من وسائل النقل فلتنظر اولاً في هذا النوع من الترامواي لانهُ اصلح ما صُنع حتى الآن